٥ – حتميــة الحـــرب

الوقت ضدنا :

وجاء عام ١٩٧٣ ليشهد خطوات متتالية فى الطريق إلى أكتوبر .

كان من الضرورى أن نبحث عامل الوقت وتأثيره على أبعاد المشكلة بعد سكون دام حوالى سنتين ونصف منذ مبادرة روجرز فى أغسطس ١٩٧٠ ، حتى يمكننا تحديد الوقت المناسب لبدء الحرب ، وبالتالى يتم توجيه الجهد السياسى والجهد العسكرى وجهود باقى أجهزة الدولة التزاما بهذا التوقيت دون الافصاح عنه . لقد طلب الفريق أول أحمد إسماعيل من هيئة العمليات عمل هذه الدراسة لتكون تحت نظره عند مناقشة الموضوع مع القيادة السياسية .

وكان رأينا فى هيئة عمليات القوات المسلحة ، أن مصر قد استنفدت كل الوسائل السياسية والدبلوماسية للخروج من « حالة اللاسلم واللاحرب » والوصول إلى حل عادل لمشكلة الشرق الأوسط إلا أن جهودها لم تصل إلى نتيجة . وأصبح واضحاً أن سياسة الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لا توفر الظروف المناسبة لحل المشكلة بما يتفق مع المصالح العربية ، بل ان هذه السياسة أصبحت فى صالح القوتين العظميين وإسرائيل .

وكنا نرى أن إطالة الوقت فى حالة اللاسلم واللاحرب يترتب عليه عدم اهتمام الدول العربية بالعمل العسكرى نتيجة لفقدها الثقة فى جدِّية استعداد مصر وسوريا للحرب التى ظهرت بوادره بإنهيار الجبهة الشرقية التى كانت تضم سوريا والأردن

والعراق ، وتباعد الأردن عن سوريا ، وموقف اللامبالاه لعدد من الدول العربية .

كما أن الضغط على الصداقة المصرية السوفيتية يزداد تأثيراً بغرض التشكيك فى قيمته برغم أن الاتحاد السوفيتى كان المؤيد للقضية العربية سياسياً ، كما أنه المصدر الوحيد لإمدادنا بالسلاح . وازداد هذا الضغط بعد إنهاء مهمة المستشارين السوفيت فى مصر ، الأمر الذى أعطى الانطباع بأن الكفاءة القتالية لقواتنا قد انخفضت خصوصاً فى الدفاع الجوى ، وهذا يؤكد الشك فى جدّية خوض الحرب .

وكان فى تقديرنا أن إطالة الوقت قبل شنّ الحَرْبَ يعطى لإسرائيل فرصة الحد من نشاط العمل الفدائى الفلسطينى ، وتثبيت الأمر الواقع فى الأراضى المحتلة ، وتغيير معالمها بالانشاء المستمر للمستوطنات فيها ، وربط الضفة الغربية وقطاع غزة اقتصاديا بإسرائيل ، وتعويد الفلسطينيين على قبول الحياة مع إسرائيل ، وتطويع الرأى العالم العالمى لقبول الأمر الواقع .

بالاضافة لذلك فإن المصالح الأمريكية فى الوطن العربى لم تتأثر برغم وقوف الإدارة الأمريكية ضد العرب ، ولم يكن متوقعاً تهديد هذه المصالح فى المستقبل القريب .

أما من الناحية العسكرية ، فقد كنا نقدّر أن طول الوقت قبل شن الحرب يتيح لإسرائيل زيادة قدرة قواتها المسلحة خصوصاً فى سلاحها الجوى ، ويعطيها فرصة التحسين المستمر لدفاعاتها فى الجبهتين المصرية والسورية .

وفى الجانب العربى ، لم يكن منتظراً فى المستقبل القريب تطوير قواتنا المسلحة نوعياً تطويراً حاداً يؤثر على الموقف العسكرى . كما أن طول فترة الانتظار يؤثر على معنويات القوات المسلحة المصرية والسورية طالما لم يحدث جديد فى الموقف العسكرى مع طول فترة التجنيد والخدمة بالجبهة المصرية التى امتدت إلى خمسة أو ستة أعوام .

لقد تغير مستوى المقاتل المصرى – بعد حرب يونيو – تغييراً جذرياً ، بعد أن تم تجنيد شباب مصر من ذوى المؤهلات العليا والمتوسطة ، وأصبحوا يشكلون نسبة كبيرة فى الوحدات المقاتلة وفى كل التخصصات الفنية والمهنية للعمل كجنود أو ضباط احتياطيين . ومع استمرار التعبئة العامة منذ عام ١٩٦٧ ، كان يزداد عدد

المقاتلين عاماً بعد عام حتى وصل عدد أفراد القوات المسلحة إلى أكثر من نصف مليون فرد . وكلما طال الوقت أصبح المقاتل يتمنى بدء الحرب تحريراً لوطنه اليوم قبل الغد وإنهاء حالة اللاسلم واللاحرب التى كنا فيها . هذه الحالة أصبحت تستنزف طاقات مصر البشرية والاقتصادية نتيجة للتعبئة العامة وإعداد الدولة فى مجالات كثيرة للحرب عدة سنوات الأمر الذى كان يشكل ضغطاً متزايداً على الجبهة الداخلية يوماً بعد يوم .

لكل هذه المبررات كانت سلبيات الانتظار فترة طويلة قبل شن الحرب تزيد كثيراً على الايجابيات ، الأمر الذى يحتم أن تكون فترة السكون العسكرى أقصر ما يمكن ، ويجب أن تقتصر على الوقت الضرورى فقط لاستكمال بعض مطالب المعركة لتأكيد ضمانات النجاح فيها وإتمام التنسيق العسكرى مع سوريا .

كان هذا هو الرأى الذى وصلنا إليه فى هيئة العمليات من دراسة تأثير عامل الوقت على أبعاد المشكلة . ولم يكن هناك خلاف فى وجهات النظر أثناء مناقشتى للموضوع مع الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام ، واتفقنا على أن اتخاذ القرار ببدء الحرب هو أمر هام على أن تتفق مصر وسوريا على المستوى السياسى بين الرئيس السادات والرئيس الأسد على التوقيت المناسب لشن الحرب .

لقد كانت أحاديث الحرب فى مصر شاغلنا الرئيسى ، وكان الرئيس السادات واضحاً فى إعلان نواياه أمامنا فى مناسبات عديدة بأنه قرر دخول الحرب ، ويجب أن تكون قواتنا المسلحة مستعدة لها ، ولعل ما جاء فى حديثه أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ فى مؤتمر الجيزة يوضح ذلك تماما . ولكن قرار الحرب لم يأخذ الصيغة الرسمية التى يستتبعها إجراءات تنفيذية على مستوى الدولة والقوات المسلحة ، وإن كان إعداد الدولة للحرب واستعداد وتجهيز القوات المسلحة لخوضها كان مستمراً لم يتوقف فى أى وقت .

□ □ □

وامتداداً للعمل السياسى التقى السيد / محمد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى فى مصر مع الدكتور هنرى كسنجر مستشار الأمن القومى الأمريكى - كما يقول

الرئيس السادات – مرتين خلال النصف الأول من عام ١٩٧٣ ، مرة فى باريس فى فبراير ١٩٧٣ ، وأخرى فى أبريل من نفس العام[1] .

وسجل الرئيس السادات بعض ما جاء فى هذه اللقاءات ، جاء فيها أن كسنجر قال[2] :

" نصيحتى للسادات أن يكون واقعياً ، فنحن نعيش فى عالم الواقع ، ولا نستطيع أن نبنى شيئاً على الأمانى والتخيلات . والواقع أنكم مهزومون ، فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم ...

فكيف يتسنى وأنتم فى موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر ... إما أن تغيروا الواقع الذى تعيشونه ، فيتغير بالتبعية تناولنا للحل ... وإما أنكم لا تستطيعون ، وفى هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التى تعرضونها .

وأرجو أن يكون معنى ما أقوله واضحاً ، فلست أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكرى . لو حاول ذلك ، فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى أشد مما انتصرت فى سنة ١٩٦٧ ، وفى هذه الحالة يصعب علينا أن نعمل أى شىء ... وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً ، وهو رجل أحب أن أتعامل معه فى يوم ما " .

ويستطرد الرئيس السادات قائلاً :

" كان هذا كلام كسنجر فى فبراير وأبريل ١٩٧٣ ، فقلت فى نفسى لا فائدة ترجى من الأمريكان ، فقد استولت عليهم إسرائيل ، وما زالت السياسة التى وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا فى مصر ... إسرائيل هى الحارس الوحيد على مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط ... هذا ما جعلت من نفسها ... أو هكذا جعلتها أمريكا .. والنتيجة فى

(١) جاء فى كتاب أمن مصر القومي للسيد محمد حافظ إسماعيل أن لقاءه الأول كان فى الولايات المتحدة فى فبراير ١٩٧٣ ولقاءه الثانى كان فى باريس فى مايو ١٩٧٣ .
(٢) السادات : البحث عن الذات – طبعة عربية – ص ٣٨٢ .

كلتا الحالتين واحدة ، وهى أنه لا أمل فى تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام " .

□ □ □

وكانت الخطوة التالية على طريق الحرب ، هى قرار الرئيس السادات أن يتحمل المسئولية الكاملة بإعادة تشكيل الوزارة برئاسته فى مارس . واجتمع مجلس الوزراء الجديد يوم ٥ أبريل ١٩٧٣ حيث قرر بالاجماع – مع تحفظات محدودة – حتمية الدخول فى معركة عسكرية .

ويقرر محمد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى[١] " أن الرئيس افتتح المناقشة بتقييمه للموقف فى الشرق الأوسط والقضية العربية . ومع أن الولايات المتحدة كانت فى تقديره قادرة على حل النزاع العربى الإسرائيلى ، إلا أنها لم تكن راغبة فى ذلك حتى تقرر فرض إرادتها على العالم العربى . وكان يرى توسيع رقعة المواجهة على مستوى الجبهة العربية كلها ، وأن يقترن ذلك بتحركنا العسكرى على أن تجرى المفاوضات السياسية حول تسوية النزاع من خلال العمل العسكرى . وعلى ذلك ، فقد طلب من الفريق أول إسماعيل عمل « دراسة » حول كسر وقف إطلاق النار ، بينما نتوجه إلى مجلس الأمن لعرض القضية ونكثف حملتنا الدبلوماسية " .
ويستطرد حافظ إسماعيل فى شرح ما دار فى مجلس الوزراء بقوله :

" وتحدث الفريق أول إسماعيل عن زيارته للدول العربية فى المشرق . وكان تقديره أنها لم تكن متحمسة لخوض الحرب خشية تكرار مأساة ١٩٦٧ ، كما لم يلمس استعداداً لاسهام مالى أو مادى . فكان خلاف الكويت مع العراق يدفعها لتتعاطف مع الحلول السلمية . ولم يكن العراق مستعداً للاسهام فى المعركة نظراً لظروف المواجهة مع إيران ، مع تحبيذه القيام بعمل عربى مشترك فى مجال الامداد بالبترول . أما سوريا فكانت تواجه ضغطاً من السوفيت لتجنب الصدام العسكرى ...

ودار نقاش أثيرت فيه نقاط هامة ، يمكن أن تعتبر إطاراً للحرب التى تقترب :

١ – كان هناك رأى بأن يكون الهدف هو « تحرير الأرض » ، وليس كسر جمود الموقف ، لإرغام إسرائيل على التفاوض الجاد .

---

(١) محمد حافظ إسماعيل – أمن مصر القومى ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

٢ – التخطيط لمعركة ممتدة ، تبنى على أفضل المعلومات ، وأحسن تصور لردود الفعل الإسرائيلية ، مع ترتيب الاضافة المستمرة لقدراتنا أثناء المعركة .

٣ – إن الوقت لم يعد فى صالحنا ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى تجنب الاستجابة للاستفزاز ، واستكمال الاستعداد العسكرى وإعداد الجبهة المدنية .

٤ – اتخاذ إجراءات وقائية ضد ضربة إجهاض قد تقوم بها إسرائيل عند شعورها بالسلام الذى يحرجها أو بالقوة التى تتهددها .

٥ – ضرورة ضمان استمرار الدعم السوفيتى العسكرى للمعركة ، برغم الثقة فى أن السوفيت لن يتوقفوا عن إمدادنا فى ظروف القتال .

٦ – أهمية التدخل ضد تدفق البترول والعمل على تحويل الأرصدة العربية من المؤسسات المالية الغربية .

٧ – التوجه لمجلس الأمن ضمن إطار تحركنا السياسى ، بهدف تسجيل موقف دولى نهائى من التسوية السياسية قبل التحول للعمل العسكرى .

وفى النهاية ، اختتم الرئيس الجلسة بقوله إنها كانت « جلسة ممتازة ... جلسة تاريخية لم يسبق لها مثيل » . وتوجه بالشكر للجميع مؤكداً أنه لن يقبل الدخول فى معركة خاسرة ، ليقبل حلاً سياسياً يفرض علينا . وأنه لو لم يجد فى قدرتنا دخول المعركة فسيعلن ذلك دون تردد " .